

باشوية طرابلس في مذكرة أوغست أندريا (١)

ترجمة عبداللطيف كريم

طرابلس أواخر أيار ١٨١٢

تصل حدود باشاوية طرابلس حالياً حتى السويدية ، وسيليسيا القديمة شمالاً ، أي نهاية حدود اللاذقية ، ويحدها من الجنوب نهر الكلب أو ليكوس Lycus ، والبحر غرباً على طول أراضيها ، أما من الشرق فتحدها سلسلة جبال مرتفعة تفصلها عن وادي العاصي الضيق ومنها سلسلة جبال لبنان التي تبدأ من مسافة خمسة إلى ست ساعات شمال طرابلس وتنتهي عند وادي نهر الكلب .

باشا هذه البلاد برتبة ميرميران عادة أي باشا بطوخين^(٢) ، وكان من مهماته قبل قيام الوهابيين بثورتهم وقطعهم طريق الحج أن يلاقي الجردة أي قافلة الحجيج عند عودتها إلى دمشق في البرج العشرين أي برج (كلمة غير مقروءة) الواقع في منتصف الطريق بين دمشق ومكة . وعندما يلتقي باشا طرابلس بأمر الحاج فعليه أن يترجل ويسير في ركابه إلى أن يعفيه الأمير من ذلك بأن يدعو للركوب ثلاثاً . منذ بضع سنوات تمكن باشوات دمشق من الحصول على متسلمية طرابلس ولكن معظمهم لم يعرفوا المدينة ولم تعرفهم ولم يستطيعوا زيارتها بل قنعوا بسلطة أسمية هشة عليها . ولم يتحقق لهم حتى اليوم القضاء على روح التمرد التي واجهت خليل باشا والتي لا تزال مسيطرة على بعض النواحي التي انحسرت عنها سلطة الباب العالي إنحساراً تاماً .

إن نظرة سريعة إلى هذه الأحداث قد تسترعي إهتمامكم ، لا سيما وأن الراية الفرنسية ظلت فيها دائماً خفاقة عزيزة رغم كل الحروب والأهوال .

بعد وفاة حسين باشا مسموماً بأمر من الجزائر باشا عين الباب العالي خليل باشا خليفة له وهو من آل العظم الأسرة المعروفة ، وكان خليل رجلاً ضعيفاً ، فأستغلت حاشيته نفوذها عليه لأرتكاب كل الموبقات ، ولماضقت المدينة ذرعا بتلك الممارسات أعلنت العصيان وطلبت من الباشا مغادرة المدينة أو تسليم الجناة للأقتصاص منهم فطلب الباشامهله ثلاثة أيام ولكن المدينة لم تمنحه سوى يومين . ومر اليومان دون أن يتمكن الباشا من إتخاذ أي قرار فتسلل من المدينة إلى الميناء ومن هناك راح يهدد بأستعادة سلطته بالقوة .

لم يكن في نية الأهالي الخروج على سلطة الباب العالي بل كانوا يريدون إنزال العقاب بالظلمة الذين نكلوا بالمدينة وأحقوا بأهلها العار إذ استباحوا أعراض النساء ولم يوفروا العذارى وكانوا يعتبرون الباشا مسؤولاً عن كل خروج على حكم الشرع .

فشكل الأنكشارية صفيين من العسكر في خط طويل يصل بين السراي وباب المدينة القريب وسمحوا للباشا بأن يخرج بأمان مع كل ما يملك ، وقد قضى في هذه الأنتفاضة كثير من المطلوبين ، وقام الأهالي بتفتيش الصناديق الكبيرة خشية أن تحوي بعض المجرمين ولكنهم لم يسيئوا إلى عبود بك كاخية الباشا بل تركوه يسير في ركاب سيده .

١ - مبعوث الأمبراطور نابوليون بوناپر الأول لدراسة أوضاع باشوية طرابلس

٢ - الطوخ حزمة من شعر ذيل الفرس كانت تتخذ راية للجند ثم صارتشارة على الصدر أو الكتف ويعطى صاحبها لقب باشا

ما إن صار عبود بك خارج المدينة حتى أنطلق بجواده إلى عكار موطنه الأصلي ، بعد أن وعد بالعودة مع جيش لجب للأخذ بالثأر ، وانتظره خليل باشا دون جدوى ولما ينس غادر هو الآخر باتجاه دمشق ومات في الطريق متأثرا بهزيمته على ما زعموا .

وبقي في المدينة قائدان من قادة الأنكشارية : إبراهيم سلطان ومصطفى الدلبة . كان الأول إسكافيا وكان الثاني ابن فران وكلاهما من الأورطة ٦٧ ، فتقاسما السلطة ، إستأثر الدلبة بالقلعة ليشراف منها على المدينة فيما حل سلطان في سرايا الحاكم ، ودام الأمر على ذلك الحال أربعة عشر شهرا .

أرسل الباب العالي يوسف باشا العظم ، عم خليل المخلوع ، ليحل محله فتودد هذا إلى الأهالي ليقبلوه ولم ينزل في السراي ولا في قصر الوالي تواضعا بل إختار الإقامة في القنصلية الفرنسية التي كانت شاغرة منذ الحملة على مصر وتظاهر بالتواضع والزهد بما لم يسبقه إليه أي حاكم ، فتوالى عليه جماعات من الأرنؤوط والسكمان والجركس يعرضون خدماتهم فكان يصد الجميع في العلن ولكنه كان يدخلهم سرا في الليل من باب صغير في سور الحديقة .

ولما إجتمع ليوسف باشا نحو ١٥٠٠ جندي (١٨٠٠ في تشرين الأول) أمرهم بالهجوم على المدينة فاقتحم العساكر البيوت بيتا بيتا وأحتلوا كل حارة النصارى . فلجأت المدينة إلى السلاح وخاضت معارك عنيفة على مدى ثلاثة أيام لبلياليها وأنتصرت ما أضطر الحاكم إلى أن يتراجع حتى حدود بيته ثم غادر بيته ليلا إلى الميناء أملا في أن يعيد الكرة في ظروف أفضل ، وكف عنه أهل المدينة فلم يتعرضوا لمسكنه ، وكان قد لجأ إلى الحيلة إذ ترك بيته مضاء في الليل فلم يشك المهاجمون في أنه داخل البيت حتى أكتشفوا الحيلة في اليوم التالي فأنقضوا عليه من البساتين فواجههم بمدفعين حصل عليهما من أحد أبراج الميناء ولكنه بعد جهود فاشلة لاذ بالفرار على متن مركب متخليا عن أسلحته ومبحرا باتجاه قبرص .

واستمر الأنكشاريان يتقاسمان السلطة ، وداخلهما الطمع فأختلفا ، أوكل مصطفى الدلبة القلعة إلى باش شوايش ليتفرغ لشؤون المدينة وبرز اسم بربر وهو من منشأ غامض فنجح في أن يشكل حزبا ثالثا يدين له بالولاء في المدينة وفي القلعة ، وأستعان بأنصاره في القلعة ليتسلل إليها ليلا فيفاجيء أسماعيل رفقي الباش شوايش المكلف بحراستها وهدده بقطع عنقه إذا لم يتخل عن القلعة فسلمه المفاتيح وخرج فأعلن بربر أنتصاره بأن أطلق مدفعا ورفع رايته فوق القلعة .

فر الأنكشاريان إبراهيم سلطان ومصطفى الدلبة ولم يجروء هذا الأخير على العودة إلى القلعة ويقال أنه مات خنقا بأمر السيد الجديد .

أدرك بربر أنه يحتاج في حكمه إلى شرعية ما ، فلجأ إلى عميل لبريطانيا توسط له لدى الكومودور سدني سميث ليحصل له من الصدر الأعظم على لقب آغا تثبيتا لسلطته على جماعة الأنكشارية في المدينة لعلمه أن ذلك الصدر الأعظم لا يرد للكومودور طلبا ولو على حساب هيبة الباب العالي وسمعته ، فكان له ذلك فشرع بترميم القلعة وأخرجها من واقعها المتردي جدا مستخدما في ترميمها حجارة سراي الباشا التي أرتأى أن يهدمها تماما بحجة أن ترميم القلعة ضرورة لا بد منها لحماية المدينة ولكن هدفه الحقيقي كان الحؤول بين السلطان وبين كل أمل بتعيين وال جديد لطرابلس . وقام بأستدانة ٣٦ إلى ٤٠ كيسا لأتمام عملية الترميم التي لم تكن ناجحة إذ ما يكاد ينتهي من ترميم جدار حتى ينهار آخر. وفي أثناء ذلك عُيّن أحمد باشا الجزار حاكما على سوريا كلها فجدد ثقته ببربر وثبته في حكم طرابلس ، وكان ذلك من مظاهر الضعف في سياسة الباب العالي وإدارته لشؤون الحكم لا سيما في باشاويتي دمشق وطرابلس .

وبعد وقت قصير توفي الجزار فتناوب على حكم طرابلس إبراهيم باشا ثم ابنه محمد باشا ثم كالندر باشا ولكن أحدا منهم لم يأت إلى طرابلس التي ظل فيها بربر السيد المطلق مواظبا على تأدية نفقات الجردة بانتظام وبالبلغة ٤٥٠ كيسا أي ٢٢٥ ألف قرش سنويا ، ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان قد دفع ثمن ما ينعم به من هدوء حاليا هدايا لباشاوات طرابلس حتي يبقيه بعيدا عن المدينة .

وحل يوسف كنجي باشا محل كالندر باشا في حكم طرابلس وكان كرديا ومن فرقة الدالاتية كسليمان باشا والي عكا الذي كان الأثير لدى الجزائر وكان يوسف كنجي باشا واليا على دمشق في الوقت عينه ، وجاء تعيين الكنجي على خلفية إنهاء حالات العصيان في باشوية دمشق ووضع حد للتهرب من المتوجبات المالية للباب فقرر الكنجي أن يقوم بجولة عسكرية في شتى أقاليم الولاية فجاء إلى صافيتا بجيش لجب بعد أن زار حماه وحمص وحصل جزءا من الديون المتوجبة على مناطق النصيرية .

شعر بربر بالخطر الداهم وأدرك أن الكنجي يحمل حكما من الباب العالي بقطع رأسه فحاول أن يثنيه عن المجيء إلى طرابلس ومثاه بمئتي كيس ثم حسب أنه سيكون بمنجى في القلعة بتأييد من سليمان باشا والي عكا فرفض الخضوع للكنجي ونقض عهده ، فكان ذلك بمثابة إعلان العصيان على السلطنة والشروع في حرب ضد الباشا ، فكان لا بد من التفكير في حماية الناس من المواجهة الرهيبة بين الجبارين المتصارعين .

كان يوسف باشا قد أرسل من اللاذقية عدة رسائل أوبيورلديات تدعو الأهالي للهدوء والوثوق به ووعدهم بالعمو عن كل المخالفات السابقة والصفح عن كل تمرد سالف مع التأكيد للجميع بأن المطلوب رأس بربر وحده وهو طلب توافق عليه ثلاثة سلاطين .

وظن بربر خطأ أن الكنجي لن يأتي إلى طرابلس إذا عرف أنها خالية من السكان ، وكان له من النفوذ على الأهالي ما يكفي لأقناعهم بترك المدينة ومغادرة بيوتهم فيها . ولما رأى أن عملية النزوح بطيئة فكر بتسريعها بأن كلف مناديا لينادي في الناس بأن أبواب المدينة ستقفل كلها بعد ثلاثة أيام ويصبح من المستحيل الدخول والخروج . فتحركت الجموع للمغادرة بعضهم بدافع الخوف من البلاء القادم والبعض إرضاء لبربر وعملا بنصيحته وحملوا ما خف وغلا من أمتعتهم ووضعوا بعضها أمانة في القلعة أو وزعوها على الخانات ولم يبق من السكان داخل المدينة ولا من المتاع إلا ما عجز الأهالي عن حمله أو ما تدنت قيمته عن كلفة نقله ، وظلت المدينة خاوية شهورا عدة كحوض فارغ ولم يبق مأهولا سوى شريط من البيوت المتاخمة لأسوار القلعة مأهولا ببعوائل الأرنأوط ممن هم في خدمة بربر ، ولم يبق في المدينة من السكان سوى عجوز أسمه خليل أفندي ظل يحرس داره لقلعة ذات يده وسوى راهب من رهبان الأرض المقدسة وقنصل فرنسا بدافع من الواجب والشرف مفضلا ركوب المخاطر على تنكيس راية الأمبراطورية لما في ذلك من عار ومهانة .

لقد نبت العشب في الشوارع ، وحتى مدينة الميناء خلت من سكانها وحُملت المدافع من الأبراج إلى القلعة وصارت المؤن والأقوات كلها في عهدة بربر فعطل كل الرحي في المطاحن وأخفى محاورها وسد السواقي ومجاري المياه ولم يبق للمعتدي سوى مياه الأبار وكانت غير كافية ومعظمها ملوث وغير صالح للشرب . ولو أستطاع لنقل مدافع أرواد وحقق بذلك نصرا أكيدا ولكن سكان تلك الجزيرة لم يطاوعوه في ذلك وأعادوا المركبين اللذين أرسلهما لهذه الغاية خاويين خائبين

وأصبح بربر في أمان لولا ظهور تسعة مراكب مسلحة قدمت من أرواد (١٥ آب ١٨٠٨) ورأها تقتحم الميناء ولم يكن لديه في القلعة سوى ثلاثمئة وخمسين رجلا فاستولى المهاجمون على كل ما في الميناء من مراكب تركها أصحابها دون حماية ولم ينج من تلك الغارة سوى مركبين حظيا بما يكفي من الوقت للهروب والأقلاع .

وبعد يومين دخل يوسف باشا المدينة مع الفجر على رأس أربعة آلاف مقاتل وكان أول إهتماماته التأكد من سلامة القنصل الفرنسي وسلامة الأديرة والبيوت المرعية بالحماية الفرنسية بالإضافة للأعراب عن أعجابه بشجاعة القنصل وتقديره لجلالة أمبراطورنا وأبدى رغبته بأن يرفق أقواله بالأفعال بأن أرسل إلى القنصلية جنديين لحمايتها ممن كانوا يترصبون بها من كل جهة وحتى لا يبرر رأي معتد عدوانه بالجهل وعدم المعرفة .

ولا يفصل مقر القنصلية النمساوية عن القنصلية الفرنسية التي تقوم مكان دير متهدم قديم سوى بستان صغير . قنصل النمسا فر من المدينة كباقي السكان بعد أن عرض على القنصل الفرنسي

أن ينتقل إلى داره على رجاء أن داره لن تقصف من القلعة بما سوف يقصف به جيش الباشا . وقد تشرفت الراية النمساوية بأن رفرت بحماية الراية الفرنسية مستفيدة من كل أمتيازاتها . دخلت قوات الباشا من ثلاثة أبواب وبادرت إلى أعمال النهب وأقتحمت المقرات الرسمية كما بيوت المدنيين دون تمييز واستحوذ الجند على كل ما ينفعم بكل سهولة لخلو المكان من السكان ، حتى المساجد نهبت وحطمت أبوابها ونوافذها . واقتحم الجنود دير الأرض المقدسة ونهبوه لأنه كان بعيدا عن القنصلية ونهبوا أيضا بيوت الفرنسيين القريبة من ابواب المدينة كما نهبوا بيوت الآخرين دون تمييز ولكن ما إن ظهر أحد المترجمين التابعين للقنصلية حتى توقفت الفوضى تماما ، وأعتذر الباشا عما تعرضنا له في غفلة منه وتعهد للفنصل بالتعويض من جيئه الخاص عن كل ما سببه الجند غير المنضبطين من ضرر .

استقدم يوسف باشا من دمشق أطعم النجارين والحديد وعمال المياه ليعيدوا تأهيل المجاري للحصول على الماء ، ودفع مبالغ طائلة للحصول على البقسماط (٣) وبعض المؤن الأخرى من حمص وحماه ومن نواحي الساحل ، وكان معه نحو عشرين من مدافع الميدان وزوده الأرواديون بما استطاعوا من أسلحة الحصار وكانت تلك المدافع أعجز من أن تلحق الضرر بأسوار القلعة فكان بحاجة إلى أقوى منها مما ليس في جيشه مثله فلجأ إلى قنصل فرنسا ليزوده من قيرص بعسكريين فرنسيين مختصين بالمدافع وقد تردد القنصل بين أن يقدم هذه الخدمة التي لن تكون دون مقابل على فرنسا وبين تقديم الدعم لحليفنا الباب العالي لإعادة مدينة خارجة عن الطاعة منذ سنوات إلى كنف الشرعية . فجاء أحد الضباط ومعه عشرة من ذوي الأختصاص لتنفيذ تلك المهمات ، ولكن قائد تلك المجموعة لم يكن على المستوى المأمول لا خبرة ولا شجاعة فقد ركز مدافعه على ربوة قريبة مشرفة على القلعة من الجهة الشرقية وتركه بربر يفعل مع أنه كان يستطيع منعه ببندقية أم قنيل العتيقة ، أما المدافع التي نصبت في الأسفل من الجهة المقابلة فقد كانت قريبة جدا من القلعة ولكنها أشد تحصينا وأفضل حماية .

أما بربر الوثائق من أن قلعته أمنع من أن تؤخذ عنوة فقد قرر أن لا يكون الباديء وأن يترك للباشا تلك المسؤولية . وبعد خمس أو ست طلقات من المدافع المهاجمة أطلقت مدافع بربر ثلاثة قذائف كانت كافية لأعطاب المدافع المهاجمة وتخريب تلك المساعي برمتها .

وقد أعتذر قائد تلك الوحدة الفرنسي عن ذلك الفشل بأن مدفعية الباشا لم تقم بالأسناد المطلوب وهو عذر غير مقبول حاول أن يغطي به على تقصيره وجينه علما بأنه كان قد قبض سلفا من الباشا ألف قرش بدلا عن أتعابه . وكاد الباشا أن ييأس ويتخلى عن المهمة ولكن قنصل فرنسا شجعه على الاستمرار لما في الأنكفاء من ضياع للسمعة والشرف ، لا سيما وأن المحاصرين كانوا لا ينفكون يهزأون منه ويكيلون له الشتائم من فوق الأسوار ويبشرونه بهزائم أقسى وأشد إذا لم يرعو ، ما دفعه إلى إتخاذ قراره بالاستمرار بالحصار حتى النصر أو الموت وقام بتركيز المدافع من جديد في أماكن أخرى وعندما نفذت كل القذائف عمدوا إلى صب قذائف جديدة من نحاس .

وفتحت النيران من كل الجبهات ولكن شجاعة الباشا كانت أكبر من حظه لاسيما وأن قواته تمردت عليه ورفضت الهجوم على القلعة ما لم يتعهد الباشا بأباحة موجودات القلعة للمهاجمين عندما تسقط ، فقد كان الجميع يحلمون بما تحويه من ثروات خيالية .

كان يوسف باشا أمام خيارات صعبة وأصعبها أن دمشق قد بدأت تتحرك مع أنه أحسن صنعا بالأحتياط من أي إنقلاب عليه في غيبته بأن استصحب كل من يمكن أن يشكل تهديدا بالإنقلاب عليه ، لا سيما رجليين أثنيين كان يخشاهما كل الخشية .

كان سليمان باشا قد سبق الكنجي للتعامل مع الإنقلاب الجديد الحاصل في أسطمبول ولم يكن مطمئنا إلى نوايا السلطان الجديد . كان الكنجي محاطا بالخونة وضعاف النفوس ولم يكن واثقا من المدد الذي وعده به الباب العالي وكان سليمان باشا قد أخفى عليه نبا ما كان على وشك أن يرسله

³ - هو نوع من الخبز يتحمل التخزين زمنا طويلا

إليه من مدد يشمل المدافع والمؤن والذخائر والأغذية ، بل نصحه بالتخلي عن المهمة وأرسل وفداً من قبله رفيع المستوى يعرض عليه التوسط بينه وبين بربر .

فلم يكن من يوسف باشا لجهله بما كان سيصله من مدد ، ولما كان الناس يتداولونه من أن السلطان الجديد على وشك أن يعزله ، وبسبب النكسات العسكرية التي مني بها ، إلا أن يعتبر الوساطة حلاً مقبولاً فقبل بأن يمنح بربر حرية الأنسحاب من القلعة مع أنصاره وحرمة وما يملك من متاع . وبعد أن اجتمع بربر بيوسف باشا اجتماعاً قصيراً خرج من القلعة في موكب صغير ومعه نفر من أنصاره متوجهاً إلى عكا . بخروجه حل الخوف محل الوقاحة والتحدي فاعتمر قبة الدالاتية ليستمد منها الاحترام والحصانة في عين غريمه الذي كان من قادة هذا الفصيل المرموق .

وعندما آلت القلعة إلى يوسف باشا أعاد إلى السكان كل ما كانوا قد وضعوه فيها من أمانات . وكان الأيفاء بالعهد كاملاً ، ولم يحتفظ يوسف باشا لنفسه بشيء ولم يفرض على الأهالي أي تعويض أو مساهمة عقاباً لهم ودعمًا لخزينة الدولة عن المبالغ الضخمة التي تكبدها والتي زادت على ثلاثة ملايين قرش فضلاً عن رواتب الجند .

ترك بربر في القلعة ستين مدفعا منها ثمانية مدافع معطوبة ونحو مئتي برميل من البارود وبعض القذائف (الكلل) وليس بينها أية قذيفة من العيار الثقيل . وقد مات في القلعة من الحصار نحو ٣٠٠ نفر من مختلف الأعمار والأجناس ، معظمهم مات بالأوبئة ، لم يتضرر المحاصرون من القصف بل من الأمراض وعين يوسف باشا دزداراً على القلعة علي بك^(٤) من أكابر وجهاء عكار والذي عرف بشهامته وغناه ونبل مقاصده ، وعاد بعد ذلك إلى دمشق .

هدأت طرابلس في عهد علي بك ولكن الأضطرابات عاودتها سنة ١٨١٠ فقد اقترب الوهابيون من المزريه على ثلاثة أيام من دمشق فأرسل يوسف باشا كنج معظم قواته لصددهم وزعم سليمان باشا والي عكا أن الباب العالي قد أمره بالمساعدة على دفع الخطر فتقدم من دمشق على رأس ١٤ ألف مقاتل معظمهم من الدروز يقودهم الأمير بشير والشيخ بشير شخصياً .^(٥) متكتماً على أوامر الباب العالي بقطع رأس يوسف باشا .

وأدرك يوسف باشا حقيقة ما يضمرة القادمون فخرج لمواجهتهم مع البقية الباقية لئلا يهزم ولا حت له في البدء بواد النصر لشجاعته وشجاعة من معه ، وأنهزم الدروز من الصدمة الأولى وأنهزم معهم سليمان باشا شر هزيمة لولا أن بعض قادتهم ترجلوا مقسمين على الموت أو النصر ما رفع من معنويات الدروز الآخرين ودعاهم للأقتداء بهم .

خسر يوسف باشا المعركة ولم تنفعه شجاعته ومع المعركة خسر دمشق وطرابلس فعهد سليمان باشا بالقلعة إلى أحد الأرنؤوط واسمه إسماعيل ماركو الذي كان من أبرز المقاتلين إلى جانب يوسف باشا ولم يتمكن هذا من تسلم القلعة إلا عندما تنازل له عنها يوسف آغا وهو أرنؤوطي آخر كان قد أسلمها من دزدارها الأخير ورفض أن يسلمها إلى إسماعيل قبل أن يطلع بنفسه على الأمر بتعيينه موقعا من سليمان باشا . وقد حاول بعض العصاة من أهالي طرابلس إخراجها منها بالقوة رافضين تزويده بالمؤن فما كان منه إلا أن يرمي المدينة ببضعة قذائف .

أرسل بربر عبود بك البحري لإدارة المتسلمية بصورة مؤقتة ولما رفض علي بك تسليمها إلى عبود بك لجأ الناس إلى السلاح لطرده علي بك منها ، ووصل بهم الأمر أن يطلقوا عليه النار مع أن الكثيرين منهم ما يزالون إلى اليوم يعيشون على عطاءات علي بك وأفضاله .

لم يعد لبربر أية سلطة على القلعة بل منع من دخولها ويمكن الجزم بأن سلطته قد تقلصت إلى حد كبير عما كانت عليه . وله في المدينة خصوم ولكنه يسترضيهم بالكثير من الأعفاءات بحيث بات الجميع يشعرون بأن أي تغيير في السلطة ليس لمصلحتهم . في العهود السابقة كان المفتي ونقيب الأشراف وقاضي القضاة وكل الأفندية وقادة الجند لهم على المدينة تعيين وكان على أصحاب

4 - هو علي بك الأسعد المرعي عدو بربر التقليدي

5 - وكان علي رأس ذلك الجيش أيضا الأخوان جرجس وعبدالأحد باز اللذين قتلها الأمير بشير بعد ذلك بمؤامرة دنيئة وفي يوم واحد . (المترجم)

الأفران والجزارين أن يقدموا لحراس القلعة كل ما يلزمهم بنصف ثمنه وكان على المدينة كلما أتاها ضابط جديد أن تقدم له هبات معينة .

لقد ألغى بربر كل هذه التجاوزات ومنع الخوات تماما وحتم على جنوده وعلى نفسه أن يدفعوا ثمن ما يشترونه بالسعر العادي الذي يدفعه العموم ، وحرر الصناعات والحرف فحاز على رضى الجميع ، والحق أن عنده ما يكفي من العفوية والذكاء الفطري وحسن الإدارة في ضبط الأمور . أبقى في خدمته على أربعين نفر فقط من الحرس الخاص وخصهم برعاية كافية ، ولديه دالي باشي اسمه جهير آغا وقائد أرناؤوطي اسمه سعيد آغا نجحا في تجنيد ثلاثمئة نفر من الفرسان وسلاح المدفعية ووضعاهم في خدمته . هؤلاء القادة لا يضمنون له إحتراما كبيرا ولكنهم مخلصون في خدمته إنفاذا لرغبة الباشا الذي يدفع لهم رواتبهم .

هو نفسه عقد مع الباشا اتفاقا ملزما بالأمتهاع عن فرض أية ضريبة طارئة خلافا لباقي المتسلميات . إنه غني بالمال والعقارات والأراضي ، ولكي يقطع على خصومه كل أمل في ثروته فقد أوصى بثلثي ثروته لأولاده لو رزق أولادا وثلث الباقي لأرقائه إذا مات دون عقب . وعنده اثنا عشر رقيقا بين ذكور وإناث يقاسمون أفراد أسرته في كل شيء ، إنه يحاول فعلا أن يبدو مسلما حسن الأسلام .

تقوم طرابلس على ربوتين يمكن اعتبارهما جزءا من جبال لبنان ويشرف على هاتين الربوتين في شمال المدينة جبل سماه الأوروبيون سقف السفينة لما رآوه فيه من شبه بخيمة القادس (٦) . وقد يبلغ هذا الجبل ربع عقدة طولاً في أحسن تقدير ونصف عقدة عرضاً .

وليس للمدينة من سور فعلي ولا من خندق يزرها ، وبيوتها متلاصقة وتشكل هي نفسها سوراً منيعاً ، يناهز عدد أبوابها السبعة عشر باباً بين كبير وصغير وقد ألغى بربر نصفها .

نهر قاديشا ينبع من مغارة تحت غابة الأرز المقدس ثم يتلقى روافد عدة من جبال لبنان ومن الضفتين قبل أن يقسم المدينة إلى شطرين غير متساويين ، الضفة اليمنى هي الأصغر والأقل أهمية ، ويصل بين شطري المدينة جسران ليس لأي منهما ما يميزه لا حجماً ولا فناً .

كل بيوت المدينة من حجر وهي تعاني الأهمال والتلف ولكنها عالية نسبة لسماكة جدرانها الخارجية التي تتألف من حجر واحد لا يزيد سمكه غالباً على ثمانى بوصات (٧) وكل بيت من بيوتها يمكن أن يتحول إلى قلعة صغيرة إذا قرر سكانها القتال ضد معتد غير مزود بمدفعية .

شوارعها مبلطة وفيها كثير من القناطر والعقود الحجرية الداعمة للأبنية من الزلازل ، تستند إلى هذه القناطر أو إلى بعضها خزانات الماء التي تنز بإستمرار بسبب بعض الفجوات ، والخزانات موصولة بالنهر من مسافة ساعتين من المدينة لجهة الجنوب الشرقي فوق درويشية من أجمل مناطق المدينة وعلى بعد ربع عقدة من المدينة قناة تقوم على قناطر ثلاث يبلغ طولها ١٤٠ خطوة ، وظيفنها أن تضيف ماء الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى لتزويد الحمامات والأحواض وسواقي الري في المدينة ، لم يبق من هذه القناطر سوى أثر غامض لصليب منقوش على القنطرة الوسطى يدل على إمكانية أن تكون تلك القناطر صليبية ، وتحت هذه القناطر جسر ضيق للمشاة لا يتسع لأكثر من رجل واحد يعود على الأرجح إلى العهد نفسه ويسميه الناس جسر البرنس . (٨)

ليس في المدينة ما يدل على القدم إلى ما قبل العهد الصليبي والمأذن ليست سوى أبراج النواقيس للكنائس القديمة . وإن توالي الألوان بين الأبيض والأسود في قباب المداخل وزخارفها وكذلك في النوافذ تشير إلى تأثر فن العمارة بالفن الإيطالي إلى حد بعيد .

هذا المزيج بين الأسود والأبيض نجده في معظم جدران الأبنية العامة والخاصة التي لها شأن . وليس من النادر أن نجد في الأبنية الخاصة أرضيات من الرخام الملون بألوان زاهية عديدة

6 - أي السفينة الحربية أو galere

7 - البوصة تساوي ٢٧ مم

8 هذه القناطر مع الجسر انهارت بطوفان سنة ١٩٥٠ الشهر . وقد رايتها رأي العين مرارا وقبل سنوات من إنهيارها (المترجم)

تشكل موزاييكا جميلا . هذا الرخام يؤتى به من مقالع في الضنية على خمس ساعات من طرابلس (٩).

تقوم القلعة التي سبق أن تحدثنا عنها في الجنوب الشرقي من المدينة . وهي مكشوفة للمدافع من ثلاث جهات ويمكن نصب المدافع فوق الهضاب المشرفة على القلعة والتي تعلو إحداها قبة مسجد كبير تدعى قبة النصر الي بنيت تخليدا لذكرى إنتصار المسلمين على الصليبيين . ليست الجدران الداخلية للقلعة على قدر كبير من الصلابة ما سهل دكها بالقتابل وأدى إلى تدميرها ، ولقد أكتفي بترميم ما تهدم منها في الجهة الجنوبية . أما الأسوار الخارجية فهي أصلب وأسمك ويشد بين حجارها ملاط متين من حصى متماسك . وتكثر في الناحية الجنوبية تلال صغيرة من الأتربة والردميات يسهل نصب المدافع فوقها وتوجيهها نحو القلعة من مسافات قصيرة لا تزيد عن مرمى بندقية . وفي حرم القلعة خزانات للمياه وآبار لا بأس بها وهي تستوعب ألف مقاتل ويقوم على حمايتها في هذه الأيام قائد من الأرناؤوط على رأس مئة جندي راجل ، وهناك بالإضافة إلى بابها الطبيعي في الجهة الشمالية دهليز سري يقال إنه في الجهة الجنوبية .

ليس في طرابلس ساحات عامة . وفيها سبعة خانات لم يبق منها بحالة جيدة وصالحا للاستعمال سوى خمسة ، وأسواقها معتمة وليس فيها ما يلفت ، وفيها سبعة أو ثمانية حمامات نظيفة وديزينة من الجوامع وكنيس وكنيسة للروم يخدمها مطران وأربعة مضافات للأرساليات الأوروبية وهي إرسالية الأرض المقدسة والآباء الكرمليين والكبوشيين واليسوعيين ، وقد حل العازاريون محل اليسوعيين منذ أن حل تنظيم هؤلاء .

هذه المضافات بإستثناء مضافة الأرض المقدسة لا يأتيها من أوروبا أية مساعدة ولذلك فهي بحالة يرثى لها ولا يقوم على خدمتها أي رجل دين في الوقت الحاضر . وقد نزل قنصل فرنسا في خرائب الأرسالية العازارية لأنه لم يجد مكانا أفضل لسكناه وهو يدفع مبالغ باهظة بدل أيجار

أما المضافات الأخرى فتشغلها عائلات من أهل البلد الحائزين على الحماية الفرنسية ويدفعون بدلات تتناسب وحالهم من البؤس .

يمكن تقدير سكان طرابلس بخمسة عشر ألف نفس مقسمين كما يلي :

١٣٠٠	أنكشاري من الأورطة ٣٦ و ٦٧ وهذه الأخيرة أكثر عددا .
١٠٠	من حرس السواحل
٨٠٠	من الأشراف أي الأسر التي تعود بنسبها إلى النبي
٢٧٠٠	يونانيين (المقصود روم)
٢٠٠	كاتوليكي (المقصود مورانه)
١٠٠	يهودي
٩٠٠٠	تركي (المقصود مسلم)

المجموع ١٤٢٠٠

في فصل الشتاء يرتفع هذا العدد بنزوح فقراء المواردنة من الجبل إلى الساحل ، إما بحثا عن عمل أو بسبب الثلوج التي تغطي جبالهم فيقيمون في مغاور يحفرونها في الصخر على جانبي وادي النهر الواقع في آخر سلسلة جبال لبنان (١٠) أو في بيوت طرابلس المهجورة ليصل عدد سكان المدينة إلى ١٥٠٠٠ نسمة .

تجدر الإشارة إلى أن هذا العدد يشمل أيضا سكان الميناء الذين يناهزون ثلاثة آلاف نفس . تنتهي آخر جبال لبنان كما ذكرت أنفا بسهل منبسط وشاطيء ساحلي متصل بعرض نصف ساعة وهو سهل رملي تغطيه أشجار البرتقال والليمون الحامض وبعض الثمار السكرية

٩ - هذا الرخام وتلك المقالع لا يعرف عنها الطرابلسيون شيئا اليوم (المترجم)
١٠ - المقصود وادي نهر أبو علي

كالفرصاد(التوت) والمشمش وهو ثمر مرغوب من السكان المحليين ولكنه يؤذي الأوروبيين . في بعض نواحي هذا السهل القريبة من البحر مستنقعات ، وقد كان هذا السهل محميا في القديم بسنة أبراج ما تزال قائمة ولكن الأهمال حول بعضها إلى خرائب وجردت من مدافعها فأصبح الشاطيء دون دفاع ، ويفصل بين البرج والآخر مسافة طلاقة أم فتيل (١١) ، ويبدو أنها من بقايا الصليبيين ، أحدها يحمل اسم برج السباع . وله رنغ (١٢) ما يزال بحالة جيدة وعلى أحد وجهيه صورة لبرج تشبه صورة الشاطيء وفيها وشم يحمل كلمتي civitas tripolis ، وعلى الوجه الآخر صورة أسدفي رنك مثلث (وهو إذا لم أخطيء شعار أسلحة آل تولوز) مشفوعة بهذه الكلمات vis comitis tripolis وهذا ما يؤيد أقوالي (١٣) .

هذا الرصاص الذي لم يتلف منه سوى إسم صاحب الرنك يذكر أن ريمون الثالث رابع وآخر كونت حكم طرابلس والذي توفي دون عقب قد أوصى بالمدينة لبوهيموند الثالث ابن عمه أمير أنطاكيا .

أما الأبراج الثلاثة العليا فهي مميزة بعمارتها عن الأبراج الأخرى ، وفي برج القناطر كتابة بالخط العربي من ستة عشر سطرا وقد سمي البرج برج القناطر لأن في مدخله عدة قناطر غير متقنة الصنع لعلها من بقايا المنتصرين على الفرنجة وهي متخلفة عن تلك التي إلى الشمال . وإن البرج الجنوبي من البرجين هو برج الميناء ومعظم سكانه من اليونانيين (المقصود الروم) وفي هذا القسم مخازن كبيرة وسراي هامة مكتظة دوما بالغادين والرائحين . وفي هذا القسم تعقد معظم الصفقات وتتجز كل النشاطات التجارية وفيه ورشات بناء المراكب المجسرة وغير المجسرة وفيه تبنى مندوقت غير بعيد مراكب الكاييك بحمولة سبعة إلى ثمانية آلاف كيلو اسطمبولي (١٤) . وعيب هذه المراكب أنها لا تعمر طويلا بسبب الوصلات غير المتقنة بين أجزائها بشكل عام وبسبب نوعية الخشب الرديئة بشكل خاص . وليس في طرابلس سوى مرسى واحد جدير بهذا الأسم وهو محمي ببعض الصخور الناتئة التي تصد الأمواج من ناحية جزيرتي الأرانب والحمام .

هذه الصخور الطافية تسمح بمرور المراكب الصغرى وتحمي الميناء من عنف الرياح الجنوبية الغربية وهي الأعنف والأدوم بدليل إحناء التلال الرملية والأشجار إحناء حادا بإتجاه الشمال الشرقي

أرض المرسى من صخر كلسي بين برج السباع وبرج النمر وبعضها موحل القعر بحيث لا خوف من العطب إذا جنحت فيه المراكب الصغيرة .

وبين برج النمر ومصب النهر أرض من حصى . يتسع المرفأ لعدد كبير من السفن تفصل بينها مسافات تتناسب مع حجم السفينة ، وتحرص الفرقاطات والسفن الكبرى أن لا ترمي مراسيها إلا على مسافة أربعة أميال بحرية من الشاطيء في كنف جزيرتي الأرانب والحمام اللتين كانتا مأهولتين ثم أقفرتا سنة ٦٨٦ هجرية (١٢٨٧م) وهو تاريخ عودة المسلمين إلى إحتلال البلاد . وما تزال بعض أشجار النخيل ترى في جزيرة الأرانب ولقد حال عدد الأولاد المتجمهرين علينا عند وصولنا الى تلك الجزيرة دون إكمال زيارتنا لدراسة أحوالها وما يمكن أن يكون قد بقي من مساكنها الدارسة .

إلى الشمال وعلى مسافة ثلاثين ميلا يبدو في الأفق رأس الحصن الذي تقع خلفه مدينة طرطوس . وإلى الجنوب وعندما نتجاوز الحواجز الصخرية التي تشكل حدود الميناء فإن الشاطيء ينكشف عن مرسى آخر يمتد جنوبا إلى مسافة ١٥ ميلا وينتهي عند جبل داخل في البحر (١٥) بإحدار

١١ - هي البندقية المعروفة ب Mousquet

١٢ - sceau باللغة الفرنسية

١٣ - ومع ذلك ما يزال مؤرخ طرابلس د. عمر تدمري يصر على أن البرج من عمل براسباي المملوكي (راجع جريدة البيان عدد

٦/أيار/٢٠٠٩ .

١٤ - لعله يقصد الرطل وهو يعادل ٢٥٠٠ غرام تقريبا

١٥ - لعله رأس الشقعة / المترجم

عمودي أشبه ما يكون بجدار عظيم ، وفوق قمة هذا الجبل ينبسط نجد سهلي (١٦) . في سفح هذا الجبل بقايا صخور يصعب الأقتراب منها بسبب تكسر الأمواج العاتية عليها . في تلك الجهة وعندما يصفو الجو تتكشف مساحات لا بأس بها من الصخور الطافية التي تشكل أجرا ذات أرضية مسطحة ومتفاوتة العمق وكأنها قد صنعت خصيصا لإنتاج الملح من تبخر المياه في حرارة فصل الصيف .

تقوم الميناء على أنقاض مدينة طرابلس القديمة ويلاحظ في الجهة الجنوبية بقايا سور قديم كان يحمي طرابلس وكان عريضا جدا ولكنه مختلف الصلابة . وفي أسفل الأبراج وعلى طول الساحل تنتشر قطع أعمدة الغرانيت الرمادية الضخمة وقد أستخدم بعضها في بناء الأبراج ، وفي الشاطيء كميات من الرخام الملون بشتى الألوان ومن الزجاج الذي تقشّر بفعل الزمن ونتج عن تقشّره قطع ذات شعاعات لونية متفرجة رائعة الأشكال والألوان . ولقد بدى منذ بعض الوقت بالتنقيب الجدي فأكتشفت أحجار بناء وكتابات يونانية ولاينية وخطوط عربية كوفية وبعض تماثيل صغيرة وأجزاء من الأنصاب ولكن لم يوفقوا حتى اليوم إلى إكتشافات ذات قيمة كبيرة ، وما عثر عليه من منحوتات لا قيمة له ، ويعود تاريخه إلى العهد الروماني المتأخر وقد يقعون أحيانا على قطع صغيرة من الذهب التي قد يبتلعها مكتشفها إعتقادا منه أنها ذات مفعول أكيد في الشفاء أو الوقاية من الأمراض .

أهم صناعات المدينة صناعة الحرير وهم ينتجون منه اليوم أكثر مما كانوا ينتجون في الماضي بسبب زيادة الأهتمام بزراعة الفرصاد (التوت) وأنتشارها على مساحات جديدة كانت في الماضي مستنقعات ثم جففت فتحسنت فيها الظروف الصحية بعد أن كانت على درجة من السوء كما في قبرص والأسكندرون .

وبين أنواع الحرير المعروفة يأتي حرير طرابلس في الدرجة الأولى لما تميز به من بريق خاص وصلابة في الخيط ، لذلك فهو المفضل لدى مصانع النسيج في مدينة ليون المتخصصة بصناعة مواد الزينة من الحرير المقصّب (gallons) .

وفي المدينة نحو ٥٠ نولا تنتج نحو ٥٠٠٠ شملة (١٧) يباع منها في السوق الداخلية ما يباع ويصدر الباقي إلى أهم العواصم في الأمبراطورية العثمانية . روعة النسيج وثبات ألوانه ومتانة خيوطه تجعل منه المفضل على كل ما عداه . تباع الشملة حاليا بصرف النظر عن ألوانها بخمسة عشر قرشا الأونصة وتزن الشملة خمسة أونصات وكل أونصة بخمسة دراهمات ويعني ذلك أن سعر الواحدة يتراوح بين ٧٠ إلى ٨٠ قرشا (١٨) هناك بعض الأنوال المخصصة لإنتاج القطنيات من نوعية أدنى بكثير وبعضها مدبوغ باللون النيلي الخاص بأثواب النصارى ويؤتى بالقطن من القطن من جزيرة قبرص .

وفي طرابلس ثلاث مصابن في ذروة إنتاجها (١٩) وهي مربحة لأنها محافظة على أسعارها ولأن بضاعتها من الضرورات التي لا غنى عنها ، صناعة طرابلس من الصابون مميزة ورائجة ويفضلها الناس على صابون كريت أو صابون البلاد السورية الأخرى ، زيت هذه الصناعة ينتج محليا وهو غاية في الصفاء والجودة ومع أن موسم الزيت يكون جيدا كل سنتين فإن الموسم الجيد يغطي الموسم الماحل ويفيض . والقلي الذي ينتج بعضه في طرابلس لتوفر النبات الذي يستخرج منه على طول الساحل يشتري الطرابلسيون أكثره من حماه وضواحيها بأسعار زهيدة .

القلي والكلس يدخلان بنسبة متساوية في صناعة الصابون وبما أن سعر الصابون يساوي سعر الزيت أو يزيد أحيانا فإن الربح من هذه الصناعة كبير ومغز لأن سعر مركبات الصابون الأخرى أدنى بكثير من سعر الزيت . يربح صانعو الصابون ٢٥% بشرائهم الصابون من كريت وإعادة

16 - حيث دير النورية وقرينتا حالات ووجه الحجر (المترجم)

17 - الشملة زنار عريض كان الرجال يلفون به خصرهم وهو من القماش غالب

18 - فيكون السعر الوسطي ٧٥ قرشا للشملة x ٥٠٠٠ شملة = ٣٧٥٠٠٠ قرش أي ٣٧٥٠ ليرة عثمانية ذهب ، فماذا تنتج طرابلس

اليوم

19 - مرت أيام على طرابلس وصل فيها عدد المصابن إلى سبعة (المترجم)

طبخه لغنى الصابون الكريتي بمادة الزيت ونقص القلي فيه فيضيف الطرابلسيون إلى الصابون الكريتي ربع وزنه من القلي بعد أن يعيدوا طبخه .
يصدر الصابون الطرابلسي إلى حمص وحماه وحتى إلى قبرص وطرطوس عندما تكون الأسعار مناسبة .

وليس في المدينة سوى مديغة واحدة تستورد الجلود المملحة من مصر ويدبغ فيها أيضا السختيان الأصفر والأحمر والأزرق ما يسد حاجة البلد .
صناعة الفخار صناعة عادية لا تمتاز بشيء اللهم إلا قلب الغليون وقلب النرجيلة وهما من فخار نقي أملس وصلب ويؤتى به من بيروت .
النجارون وعاملوا السقوف والحدادون والحرفيون الآخرون متخلفون لنقص في الكفاءة وفي المعدات .

يتاجر الطرابلسيون تقليديا مع مصر (دمياط) وحمص وحماه ودمشق وحلب . ويشترون من مصر المنسوجات الكتانية وجلود الجواميس والبقر والرز والبن والحنة وملح النشادر والصبوغ وأنواع العطارة وبييعون لمصر الحرير وخيوط مشاقة الحرير والعطارة الحلبية وأصناف العطور وهي جيدة المردود يصل ربحها إلى ١٥% وقد يصل إلى ٢٥% .

ويشترون من دمشق المنسوجات الحريرية والقطنية ووبر الحشيات الذي لا غنى عنه لمعظم سكان المدينة والجوار . ويأتون من حمص وحماه وحلب بقماش serbage وكميات من الحرير والقطن من نوعية متواضعة الجودة مما تنتجه دمشق ومن الأنسجة القطنية الطبيعية والمصبوغة من ديار بكر وبغداد ويصدرون إليها بالمقابل شمالات الحرير وخيوط مشاقة الحرير والرز والمنسوجات المصرية والزيت وأصناف العطارة .

وتشكل الحمضيات جزءاً مهماً من صادرات المدينة إلى جميع هذه الأقطار مع العسل والشمع والعفص والخمور والحبوب والفاكهة التي يكثر إنتاجها في طرابلس وبذلك تتكون عندنا فكرة كاملة تقريبا عن مداخل المدينة . أما التجارة مع الفرنسيين فقد بدأت تتراجع منذ ١٧٩٠ ، لأن حرير طرابلس الذي كان في أساس التجارة مع فرنسا قد تراجع الطلب عليه في فرنسا بصورة متزايدة يوما عن يوم بسبب الثورة التي أتت على تجارة الكماليات

وجاءت الحرب الأخيرة لتقضي على البقية الباقية من التجارة مع فرنسا وليس في طرابلس اليوم أي تاجر فرنسي ، فالقطن والعفص والشمع والأسفنج الناعم الذي تنتجه الشواطئ بكثرة بدأ يصدر إلى أسواق جديدة وأقطار أخرى .

كنا نستورد أيضا كميات من الحبوب من سهل عكار وصافيتا عندما يفيض الإنتاج على الأستهلاك المحلي . ولا ينبغي لنا أن نأسف على الفرص الضائعة لأن سنين القحط قد تكررت مؤخرا كما تسببت القوارض بكوارث مميته في مواسم السنة السابقة بالإضافة إلى إحتكار الحكام لتجارة الحبوب ، كل ذلك لم يترك لنا أي أسف على ما فات .

وعندما تزول أسباب هذا البوار في التجارة فعلينا بالحذر والحيلة من تغيير بعض قواعد التعامل التي ألفناها سابقا . وفي رأي أن إختيار قنصل ذكيّ غيور وعادل كفيل بوضع حد للتجاوزات التي كانت تحصل لاسيما تلك التي يتعدى فيها الحاكم حدوده في فرض الرسوم ، ونرى أن من مصلحتنا إستبدال بنود الأمتيازات المطبقة اليوم بين فرنسا والباب العالي بمعاهدة تجارية تضمن مصالحنا وتغنيينا عن اللجوء إلى حق الحماية كلما تعرض فرنسي أو أحد المشمولين بالرعاية الفرنسية لمظلمة أو أراد أن يتجنب سوء تطبيق القانون .

تتألف باشوية طرابلس بدءا من الشمال من :

١ . إقليم طرطوس : ومعظم سكانه من المسلمين وعددهم ألفان تقريبا وفيها قلعة غير مهمة وكنيسة قديمة جدا .

وفي الجهة المقابلة لطرطوس ، على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال من الشاطئ جزيرة أرواد وهي صغيرة المساحة ، شعبها نشيط يتقن الأعمال البحرية وقد أستفادت الجزيرة

- من توقف المراكب الفرنسية لتقوم بأعمال المساحلة (الملاحة الساحلية) . ويحكم الجزيرة قبطان باشا.
٢. أقليم صافيتا : وهو غني بالقمح والشعير والحريير والخضار وجميع سكانه من من النصيرية وعددهم نحو أربعين ألفا ، واسم الحاكم الشيخ زكارو هو متسلم الأقليم . في صافيتا بقايا حصن قديم من الحصون التي يرتادها أمراؤهم الملقبون بشيوخ الجبل في مواعيد محددة ليشرفوا على توجيه الشبيبة وتدريبها على الطاعة لشيوخها طاعة مطلقة بحيث ينفذون أصعب المهام دون تردد وبكل إخلاص ولو كلفهم ذلك حياتهم .
٣. عكار : يقسم الأقليم إلى ثلاث مناطق يحكمها ثلاثة متسلمين : علي بك وعبود بك وقذور بك . وجميع السكان تقريباً مسلمون وعددهم ثلاثون ألفا
٤. عرب قبيلة الجحيش : يعيشون في خيام بين صافيتا وعكار وعددهم ١٥٠٠ تقريباً .
٥. إقليم الشعرا فيه أكثرية مسلمة ونسبة كبيرة من الروم والنصيرية ولا يزيد عدد سكانه على ٢٠٠٠ وقد اشتهر بإنتاج الحرير
٦. الضنية وهو الأقليم الواقع إلى الشمال الشرقي من طرابلس في الطرف الشمالي من جبال لبنان وقد يبلغ سكانه خمسة آلاف نسمة من المسلمين فيه متسلم اسمه علي رعد وهذا الأقليم غني بالأشجار المثمرة وخشب البناء والعسل والرغام من شتى الألوان وأزهارها ومنه يأتي الطرابلسيون بالتلج لتبريد شرابهم في فصل الصيف .
٧. إقليم المنية : يقع في أسفل الضنية وقد جعل منه حاكم طرابلس الحالي مالكانة وفيه نحو ألف نسمة من المسلمين .
٨. إقليم جبيل الكبير التابع لأمير الدروز بشير والذي يقسم إلى مقاطعات يسكنها موارنة وروم وبعض المسلمين وهي :
- أ- جبّة بشري أو جبال بشري إلى الشرق من طرابلس وفيها نحو عشرة آلاف ماروني
- ب- منطقة الزاوية جنوب شرق طرابلس متسلمها من آل الخازن الذين حازوا على لقب (قنصل فرنسا في بيروت) ويلتزمون المنطقة من الأمير بشير . ويبلغ عدد سكان الزاوية سبعة آلاف معظمهم من الروم
- ج- منطقة الكورة السفلى والكورة العليا وفيها نحو ثمانية آلاف نفس ، في الكورة العليا غالبية من الروم مع قلة من المسلمين وفي السفلى يتعادل المسلمون والروم والأقليم مشهور بزراعة التبغ وهو أجود من التبغ اللاذقاني .
- د- إقليم البترون وفيه مرفأ صغير وتلحق به قرية دوما المعروفة بمنجم الحديد وهو حديد مطاوع يلزم أمير الدروز المنجم إلى بعض العائلات بمبلغ سنوي يبلغ عشرين كيسا ، والحديد المستخرج يستخدم في صنع حدوات الخيل في جميع أنحاء سوريا ويحقق مستثمروه مرباح كبيرة
- هـ- جبيل وهي ساحلية وسكانها مع سكان البترون يبلغون ٢٥ ألفا
- بلغ مجموع ما جُبي من هذه الأقاليم في العام السابق ١٩٢٧٣١ قرشا ولم يزد مدخول الجمارك على ١٨٧٦٤ قرشا وقد حدث في الماضي أن تحصل مثل هذا المبلغ في ثلاثة أشهر إذا كانت التجارة في أوجها .
- يبلغ خراج طرابلس ٤٧٩٤ (٢٠) قرشا ومن البساتين ٢٥٨٠ قرشا ومن الميري والحريير ٣٥٠٠٠ قرش ومن المطاحن ٥٢٥ قرشا ومن المسلخ ١٥٦٠ قرشا و ٦٠٠٠ قرش مداخيل أخرى متفرقة ليصبح المجموع أكثر من ٥٣١ كيسا بقليل .
- لم يكن في السابق يصل إلى خزينة السلطان أي قرش من هذه المبالغ لأنها كانت تذهب إلى الجردة بنحو ٤٥٠ كيسا . أما اليوم وبما أن الحج قد توقف منذ مدة فإن الباشا يحتفظ بهذا المبلغ لنفسه وقد يدفع جزء يسيرا منه للجردة .

عندما كانت الطريق إلى الحاج سالكة فإن مبلغ ٤٥٠ كيسا وفوقه مبلغ آخر أكبر منه كان يحصل من اللاذقية لم يكن ليكفي لتسديد النفقات والتي كانت تشمل المؤنة من شعير ورز إلخ .. وأيجار الجمال لتحمل تلك المؤن لأطعام الحجيج مع مبلغ ٨٢٧٣٢ قرشا كانت تدفع للأعراب حتى يسمحوا لها بالمرور بالإضافة إلى عطاءات أخرى كانت تقدم إلى زعماء القبائل وتبلغ ٦٩٠ لفة جوخ و ٩٩ عباءة و ٣٤٤ قفطانا و ٣٧٠ غمبازا و ٣٥٠ شالا دمشقيا غطاءً للرأس و ٣٤٦ سروالا من الجوخ الأحمر والبرتقالي و ٣٠١ قرش ثمن بوابيج (أحذية من الجلد الأصفر) و ٣٤١ زوجامن لأحذية وثمانية عباات من (غير مقروءة) وخلعتان من الفرو السمور وخلعتان رماديتان .

هذه النفقات جعلت من طرابلس باشوية غير مرغوبة لأنها لا تترك للمتسلم سوى هامش ضيق للربح . وبالإضافة إلى الأقاليم الثلاثة عشر هناك أربع قرى تلزم حصرا لأربعة مشايخ محددين مرتبطين مباشرة بالمتسلم ومعفيين من التحصيل لأنهم محصنين في جبال نائية .

:

يستنتج من هذه اللوحة العامة أن عدد سكان باشوية طرابلس (بما فيه إقليم اللاذقية) ٤٩٠,٢٦٧ نسمة وأن واردات الباشوية ١١٠٠ كيس تقريبا . ويمكن القول أنه لوتوفرت إدارة أحسن وأعدل لزادت الواردات بما لا يقاس دون أن تثير غضب العامة .

التوقيع

أوغست أندريا

عادل إسماعيل – وثائق دبلوماسية وقنصلية – م ٤ – ص ٣٧٩/٣٥٧
ترجمة عبداللطيف كرّيم